قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

نصب أعداء بستور له فخاً فدعوه إلى أن يجرى تجربته عن اللقاح الذى اكتشفه فى جمع عام . فأجابهم إلى ذلك ، وحقن البهائم على رؤوس الأشهاد بالمكروب الأضعف ، وبعد أيام حقنها بالضعيف ثم بعد أيام بالأقل ضعفا . واصطبر إلى اليوم الذى يحقنها فيه بالمكروب الحى القتال

— ٤ —

وجاء اليوم الكبير الموعود ، اليوم الحادى والثلاثون من مايو ، فحفت المواشى جميعها — ما حُصِّن منها باللقاح وما لم يحصن — بحفنة قاتلة لا شك فيها من مكروب الجمرة ، وقام بحقنها رو ، فنزل فى الوحل إلى ركبتيه ، ومن حوله مصابيح الكحول وقوارير المكروب ، فأدهش النظارة بحسن ضربه

وألف جنيه ، فى حين أن متوسط ما يناله الأديب من هوليوود أكثر من ألف جنيه بلا نزاع ؛ وليس من العجيب ولا المحرم أن يفوز المغنى بآلاف الجنيهات ؛ وكذلك ليس من العجب ولا المحرم أن يفوز المخرج أو الممثل أو عارض الأفلام بآلاف مثلها ، ولكنا نضيف إلى ذلك أنه ليس من العجيب ولا من المحرم أن يفوز الأديب ببعض تلك الألوف ، لأنه شريك أساسى فى المجهود الفنى . ولهذا نرجو أن يعنى المخرجون باختيار الموضوعات وألا يضنوا على الأدباء بما يشجع البرز منهم على التخصص فى إخراج ما تحتاج اليه الأفلام المصرية من القصص

هذه كلمة لا نقصد بها إلا خدمة ذلك الفن الوليد ونحن على يقين من أن القراء مدركون قصدنا منها ، وكذلك نرجو أن يحملها المخرجون والفنانون على القصد السامى الذى نرمى اليه .

محمد فريد أبو حديد

الإبرة فى جلود الحيوانات ، وبهدوئه ورزانته وبروده وهو يضرب

أودع بستور كل سمعته العلمية هذه التجربة الدقيقة التى لا تؤمن ، وما فرغ منها حتى أدرك حقيقة الموقف ، وأيقن أن أجاب داعى الرجولة والشجاعة برضائه إجراءها ، ولكنه أبقى إلى جانب ذلك أنه أذن للجمهور ، وهو المتلون المتذبذب ، فى تقدير علمه والحكم عليه . فلم يطب له نوم تلك الليلة ، وقضاها يتلوى ويتقلب على فراشه ، وكلما عزه النوم قام عن سرير يطلب الراحة فى القيام ، ثم هو لا يجده فيعود إلى النوم ، وهكذا دواليك ، وأوصته زوجه بالصبر ومنته خيراً فصمت عنها ودخل معمله وخرج منه مقطب الجبين عابساً ، ولا شك عندى أنه هرع إلى الله فصلى ورجا وابتهل ، ولو أنى لم أر شيئاً من ذلك فى الأوراق

كره بستور الصعود فى البالونات ، وخشى دائماً عواقب الخصومات فى المبارزات ، ولكنه لم يجبن ولم يتردد لما دعا هؤلاء البيطريون إلى هذه التجربة وساقوه عامدين إلى هذا المأزق الخطير

وجاء اليوم الأكبر الموعود ، يوم الثانى من يونيو عام ١٨٨١ فجاء الناس من كل حدب وصوب لحضور اليوم المشهود ، يود يحكمون فى أمر بستور ، فان خيراً فله ، وإن شراً فعليه ، وكثر عددهم حتى ضاق بهم المكان الرحيب ، وتضاءل إلى جانب هذا الاجتماع كل اجتماع سبقه ، وكان فى الحاضرين نواب الأمة وشيوخ من شيوخها ، وكان فيهم عظماء ، وكان فيهم كبراء ، ومن كل حسب ونسب لا يظهر فى الناس إلا فى أعراس الأمراء وجنائز الملوك ، وكان فيهم الصحافى الشهير دى بلوفتس de Blowitz فاجتمعت حوله جمهرة من رجال الصحافة ومكاتبيه

ودقت الساعة الثانية ، فخرج بستور إلى الميدان يصحبه رجاله ، وفى هذه المرة لم يكن له ولهم من الجمهور إلا الترحيب الصارخ والهتاف المتعالى . فأما الشياه الأربعة والعشرون التى كانت لُقِّحت ثم حُقنت فيها الملايين من المكروبات القاتلة فقد وجدوها قائمة تأكل وتجرى فرحة مرحة هانئة بالحياة ، ولم يجدوا بواحدة منها أثراً من الحُمَّى ، فكأن مكروب الجمرة لم يخالط دمها ، وكأنما كان بينه وبينها ما بين الأرض والسماء

أما الشياه الأربعة والعشرون الأخرى التي لم تُلقّح ، تلك الأربعة والعشرون التي حقن الكروب القتال تحت جلدها من غير أن تُحمى منه وتُحصّن ، فقد وجدوا اثنتين وعشرين منها راقدة على جنوبها في خط واحد رقدةً تبعث الأسى والحزن . أما الاثنتان الأخريان فكانتا لا تزالان قائمتين على أرجلهما ولكن في غير اتزان ، تجلهدان في سبيل العيش هذا العدوّ الأخ في الذي ما غالب الحياة إلا غالبها ، وكان دم أسود ينضح من أنفيهما ومن بين شفتيهما ينذر بقرب لحاقهما بالشياه المنبطحة الصريعة من أخواتها

صاح بَيْطار لأخيه البيطار : « انظر ، انظر ، فهذه أخرى من التي لم يلقّحها بستور قد سقطت إلى الأرض ! »

— ٥ —

حضر عيسى المسيح عرس (كانا) الشهير ، فلما نفد الخمر وكاد يتعرض أهل العرس للفضيحة شاء يسوع أن يستحيل الماء خمراً فاستحال ، ولم يذكر لنا الانجيل تفصيل ما ظن الناس بصاحب هذه المعجزة ، ولا ما فعلوا به عندها . وهذا بستور في الثاني من يونيو عام ١٨٨١ يأتي في هذا العصر الحديث بمعجزة لا تقل إعجازا عن تلك التي وقعت في ذلك العصر القدّس العتيق فيقوم هذا الجمع الحاشد ، على الرغم مما كان من اختلاف أهوائه يحنون رؤوسهم لهذا الرجل القليل ، المشلول بعضُه ، الذي حمى مواشيهم تلك الحماية التامة الرائعة من قرصات هذه الخلائق الصغيرة التي تقرص فتقتل في الظلام قتلاً مؤكّدا . إن هذه التجربة الجميلة التي أجراها بستور على الملأ في بُحبوحة هذا الحقل تقع في نفسي موقعاً شاذا غريباً ، لأنها قصة شاذة غريبة في تاريخ الانسان وجهاده هذه الطبيعة القاسية . أما شذوذها ففي هذا التهليل والتكبير الذي صحبها ، وهذا الترحيب الصاخب الذي ناله بستور من أجلها . فمهدنا بكشوف العلم ألا تقدّر في حينها ، وعهدنا بها أن ينال صاحبها الأذى من أجلها . ألم يودع جاليليو السجن من أجل أبحاثه التي تسببت أكثر من غيرها في الانقلاب الهائل الذي أدى بالدنيا إلى حالها الحاضرة ؟ وكم لجاليليو من أشباه وأمثال . كذلك عهدنا بصاحب الفكرة أن تبقى فكرته ويزول فلا يَنْعم حتى بالذكر طيباً كان أو خبيثاً .

وإلاّ فما المباقرة الأولون الذين اخترعوا النار واصطنعوا العجلات وابتدعوا الشراع وأنسوا الخيل ؟

— ٦ —

أما بستور فحظه غير حظ هؤلاء جميعاً . فهذا هو قائم في هذا الحقل ومن حوله الأغنام الأربعة والعشرون تشطح وتمرح بين جُثث أربع وعشرين لأخوات لها ماتت شر ميتة . رجلٌ قدير في تمثيله ، ومسرحٌ فخم في بشاعته ، ورواية خالدة على الدهور ، وقد اجتمعت الدنيا اليه تسمع وتنصت ، وتُثبت ما تسمع ، ثم تدخل في دينه أفواجاً تحارب معه الموت لما بان لها أن النصر قريب أكيد

وأحدثت هذه التجربة في الناس تحوّلا كبيرا . مثال ذلك رجل يدعى الدكتور بيُوت Biot كانت صناعته علاج الخيل والسخرية ببستور سخريةً مُرّة . فلما رأى أخيرة الشياه تموت جرى مندفعاً إلى بستور يصيح به : « بالله عليك يا سيدي إلاّ ما حصّنتني بهذا اللقاح كما حصّنت هذه الشياه ، ثم جعلتني بذلك الكروب القاتل كما جعلتها فنجّيتها ، فالعالم لابد أن يقتنع بصدق هذا الكشف العجيب ! »

وجاءه خصيم آخر مخفوض الجناح يقول : « حقاً إني قصفت بالشكات الكثيرات عن هذه الكروبات ، أما اليوم فأنا بخلي نوّاب ! » . فأجابه بستور مقتبساً من الانجيل : « سيكون الفرح في السماء لخاطئ واحد يتوب أكثر منه لتسعة وتسعين من العُدول الذين لا يحتاجون إلى التوبة »

أما الصحفيّ الكبير دي بلوفنس فهتف لبستور وهرع يرسل تلغرافه إلى جريدة التيمس والى جرائد الدنيا . قال فيه : « إن تجربة قرية پوبي لوفرت Pouilly-le-Fort نجحت نجاحا كاملا لم يسبق له مثيل

وتلقت الدنيا هذا الخبر ، وأخذت تنتظر ما بعده ، فكأنما حسبت في شيء من التخليط أن بستور بعض الأنبياء أرسله الله رحمة بالناس ، يحمل عنهم الأثقال ويدفع عنهم الآلام . وخرجت فرنسا عن وعيها فيه فمادت به أعظم أبنائها ومنحته وسام الكردون لأكبر الليجيون دونير Grand Cordon of the Legion of Honour وبعثت اليه الجمعيات الزراعية والبياطرة وفقراء

الفلاحين ممن حلّ بحقولهم داء الجمرة اللعين ، بعثوا أجمعين إلى بستور برقيات عديدة يسألونه ألوف الحقن من لقاحه الشافي ، وأجاب بستور وأعوانه الثلاثة رجاء هؤلاء في نخوة مجيدة أنستهم صحتهم ـ والعلم كذلك . وكان بستور شاعرا ، فأثارت شاعريته في قلبه إيماناً بتجربته ، التي كانت ، زاد حتى أربى على إيمان من دخلوا في دينه حديثاً

نعم أجاب بستور السائلين ، فقلب معمله الصغير بشارع أُلم Ulm إلى مصنع للقاح ، فكنت ترى الأوعية الكبيرة بأحسبتها على النار تغلي وتتفقع ليُزرع فيها مكروب الجمرة بعد اضعافه وتأنيسه . وكنت ترى رو وشمبرلاند يقومان على إضعاف البشلة القوية والتخفيف من عنفها لتعطى شياه فرنسا بعض المرض دون أن تقتلها ، وتوخيا الدقة فيما يعملان ، ولكن أين الدقة من المسرع الهلع ؟ وتهيأ اللقاح ، فقام الأعوان جميعاً والعرق يتصبب منهم بتعبئة الجالونات الكثيرة منه في زجاجات صغيرة تسع الأوقيات القليلة . وكان لابد أن تكون الزجاجات طاهرة من المكروب كل الطهارة فطهروها ؛ كل هذا دون أن يكون لديهم كل الأجهزة اللازمة لضمان الماتبة ، ياعجبا لبستور ! كيف قام بذلك كله ؟ بل هي تجربة واحدة واضحة ابتدعها ـ أم هو القدر أعثره بها ؟ ـ ملأته ثقة عمياء ليس عهدي بالتجارب الفُرادى الواحدة أن تملأ رجلا بمثلها

وفي أثناء تحضير هذه الأُلقحة كان الأعوان الثلاثة يتحينون الفرص فيفلتون منها ليلقحوا البهائم في شمال فرنسا وفي جنوبها ، وأدى بهم المطاف يوما إلى هنغاريا . لقحوا مائتي شاة هنا ، ولقحوا خمسمائة وستا وسبعين شاة هنالك ، حتى بلغ ما لقحوه في دون العام مئات الألوف منها ؛ ثم يعود هؤلاء اللقّاحون الأفّاقون يجرون أرجلهم من التعب إلى باريس ، وفي حلوقهم عطشةٌ إلى شراب يسوغ ، وفي قلوبهم عطفةٌ إلى حُبٍّ يطيب ، أو لعلهم كانوا يتوقون إلى ساعة هادئة يقتلونها على دخان الطُّبّاق : ولكن أين لهم ذلك وبستور كان يكره رائحة الطباق ، أما الحب والشراب فكيف يجوزان عنده وشياه فرنسا تتفو ثناء عالياً تطاب الخلاص ممن عنده الخلاص ، فلا يكون لهؤلاء الثلاثة الأرقاء رغم شبابهم مندوحة من اطاعة هذا المجاهد المجنون الذي تعبّدوا له اختيارا ، هذا المأفون الذي تجمع فكره وتركّز كيانه وانحشد عزمه على إيجاد هذا المكروب الذي يقتل بعضاً . فيقومون بالتخفف من ملابسهم والتشمير عن سواعد ثم يقضون الساعات الطويلة إلى جانب مجاهرهم يُحملقون حتى تحمرّ جفونهم وتتساقط رموشهم . وفي أثناء ذلك يز الفلاّحون صياحا طلباً للقاح ، ويزداد أصحابنا انهماكا في تجهي فيقعون أثناء ذلك ومن جرائه في متاعب غريبة لم تكن الحسبان : دخلت بعض الجراثيم الغريبة إلى الأحسية مع مكرو الجمرة ، وإذا باللقاح الضعيف الذي يكفي لقتل الفأر صار يقا الأرنب الكبير . فقام هؤلاء الأبالسة يتعرفون أصل الخطأ عرفوه ، ويتعقبون مدخل هذا المكروب الضال فسدو فيأتيهم بستور بعد هذا كله ساخطا صاخبا . ولم ذا ؟ لأنهم أضاعوا في هذه التجارب وقتا طويلا ثمينا !

وأراد بستور أن يكشف عن جرثومة داء الكَلَب

كان ليل المعمل هادئا إلا من صوت الخنازير وعرا الأرانب ، أما الآن فقد غطى على هذا وهذا نباح الكلا المسعورة ، وهي تعوى عواءاً يملأ الآذان وقرا والقلوب رعبا ويطير بالنوم عن أعين الأعوان الثلاثة رو وشمبرلاند وتوييه .. لهم الله من ثلاثة ! ليت شعري ما كان يصنع بستور في حر رسلَ الموت لولا هؤلاء الثلاثة

ومضى عام او دون عام على المعجزة التي جرت على يدي بستور في قرية پويلوفرت Pouilly-to-Fort ، حتى أخذ يتضح للناس أن بستور ، هذا الصياد الماهر في صيد الميكروب ، ليس إلّها معصوما بل بشراً مخلوقا يخطىء ويصيب . وجاءته كتب عدة تراكمت على مكتبه من مونت پتيبه Montpothier وعشر مدن أخرى في فرنسا ، وكذلك من هنغاريا ، وكلها تشكو أن الشياه تموت من الجمرة ، لا الجمرة الطبيعية المألوفة ، ولكن جمرة جاءتها من هذا اللقاح الذي قصد الى خلاصها ، وأتت الأنباء بالسوء من أصقاع أخرى تقص حكايات أخرى عن خيبة هذا اللقاح . ففي بقعة من تلك البقاع اشترى الفلاحون هذا اللقاح ، ودفعوا ثمنه نقدا ، ولقحوا به قطعانا كاملة من الأغنام ، ولما جاء المساء عادوا إلى منازلهم وأراحوا جنوبهم في مضاجعهم وهم يقولون حمدا لله الذي منّ علينا برجلنا العظيم بستور ، ثم طلع الصباح عليهم ، فما انفتحت عيونهم حتى وجدوا الحقول

د غطّتها جثث الشياه النافقة — تلك الشياه التي زعموها سمينة قد ماتت من بزور الجمرة التي تخبّأت في ثرى هذه الحقول

وأخذ بستور يكرر كل صباح أن يفضّ الكتب التي تأتيه إشفاقاً على نفسه مما كتب كاتبوها ، وودّ لو سدّ أذنيه فلم يسمع بسخرية الساخر وضحكة الهازىء يأتيه صداها من وراء الأركان . وأخيراً حدث شر ما يحدث له : تقرير خرج من معمل كوخ ، تقرير محكم في برهنه ، دقيق في فظاعته ، كتبه ذلك الرجل الألماني القصير الجسيس ، وفيه نفى أن يكون للقاح الجمرة لدى التطبيق نفع أبداً . وزاد همّ بستور علمُه أن كوخ أدق صيادٍ للمكروب في الدنيا

قطف بستور القطفة الأولى من ثمار تجربته فكانت حلوة طيبة ، ثم أتى يقطف القطفة الثانية فأجزعته مرارتها يقيناً . ولكنه ، طيّب الله ثراه ، كان شهماً لا يثنيه الحدث الجليل . فلم يكن في جبلّته أن يعترف للناس أو لنفسه بأن دعاواه العريضة الطويلة ليس لها هذا العرض ولا هذا الطول الذي ادعاه . وكأني بك تسمعه يتمتم لنفسه : « ألم أقل إن هذه الألقحة تمرض الشياه قليلاً ولا تقتلها ، ثم هي بعد ذلك تحصّنها من الداء تحصيناً تاماً كاملاً . فهو ذاك ، فلأزمْ ما قلت فليس عنه من محيد »

يا له من باحث عظيم ! ومع هذا فما أقل حظه من تلك الصراحة النبيلة التي نسي فيها سقراط نفسه ورابلاس Rabelais ذاته ، فلم تخدعهما عن الحق الظاهر ، ولم تستهوِهما عنه المنافع . على أن بستور لا يلام هذا اللوم كله ، ففرقٌ ما بينهما واسع واضح ، فهذان إنما طلبا الحق على الأسلوب الذي ارتأياه ولم يتطلبا شيئاً سواه ، أما بستور فقد ساقه بحثه رويداً رويداً إلى حيث يفقد المرء لبّه ويُضيّع رشده ، إلى صناعة تخليص الأرواح من براثن الموت ، وهي صناعة ليس الحق بأهمّ ما فيها

وفي عام ١٨٨٢ بينما التقارير مكدسة على مكتبه تحمل أنباء المصائب الكثيرة من هنا وهنا ، قام بستور وسافر إلى جنيف وألقى على الزبدة المختارة من مجاهدي الأدواء في العالم خطبة رنّانة موضوعها : « كيف نخلص الأحياء من خبيث الأدواء بحقنها بالمكروبات بعد إضعافها » . وفيها أكّد لهم بستور : « أن المبادئ العامة قد وجدناها فلا يستطيع المرء أن ينكر أن المستقبل ملىء بآمال عظام . وصاح فيهم : « إننا جميعاً مدفوعون بعاطفة قوية نبيلة ، هي حب الحق وحب التقدم بالانسانية إلى خير مما هي فيه » . ولكنه وا أسفاه لم يذكر في هذا الخطاب البديع شيئاً عن الشياه الكثيرة التي ذهب لقاحه بها وقد كان لحفظها وتحصينها

وكان كوخ حاضراً في هذا الاجتماع ، وظل يطرِف إلى بستور بعينه من وراء نظارته الذهبية ويبتسم في لحيته الكثّة كلما سمع بستور يقصف بالجمل الرنّانة ، قد عَمِرت باللفظ البديع وأقفرت من العلم الصحيح . وكان بستور يخطب وهو يحس كأن سيفاً خفياً مُصلتاً فوق رأسه . ولما فرغ من خطابه تحدّى كوخ أن يجادله على رؤوس الاشهاد علماً منه أن كوخ في صيد المكروب خير منه في الحِجاج . فقام كوخ فقال : « سأقنع نفسي بالرد كتابةً على السيد بستور ، وسيكون هذا قريباً » . وكحّ ، ثم جلس

(يتبع)

أحمد زكي

ظهر الجزء الثالث من

الشوقيات

للخالد الذكر أحمد شوقي بك

أمير الشعراء

يطلب من

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ بالقاهرة — تليفون ٥١٣٩٤

ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه غير أجرة البريد ٨ قروش صاغ